جولة في أرض اللبان والبخور

والنرجيل وقدود النخيل والأسماك

بقلم: الدكتور

مجدي العفيفي

بعامها الأربعين في مسيرتها الحديثة التي توهجت من خلال المشروع العماني القومي الذي صاغه السلطان قابوس ين سعيد برؤية سياسية واقتصادية وثقافية تجاوزت مرحلة التجريب لتستقر علي شاطئ العطاء الإنساني وقدمت احتفاليتها بتدشين العقد الخامس وسط موجات من الإنجازات التي جعلتها دولة عصرية بكل المقاييس تستند إلي جدار حضاري لا ينقض ولا ينبغي له. ولقد انطلقت إشارة البداية العمانية وبشارة التحولات من "صلالة" في محافظة ظفار جنوب السلطنة، واحتضنت هذه المدينة- علي حد تعبير السلطان قابوس- أول شعاع من ذلك الفجر الصادق الذي شق بضيائه حجب الظلام، ومضي ينشر البشر،

علي سفوح ظفار عاش نبي الله أيوب في غناه وطول فترة ابتلائه وصبره

وفي أرضها دفن العثور علي بقايا إرم ذات العماد

ويزرع الحياة، ويزيل آثار دهر طويل من الجمود أعاق حركة الوطن وبدد طاقاته، فلم يعد قادرا علي مواكبة العصر، ومجاراة الأمم. من هذه الربوع بدأت المسيرة المباركة أولي خطواتها في مضمار البناء والتعمير، والتحديث والتطوير، مفعمة بالغرم والأمل، متوهجة بالجد والعمل، غايتها الكبرى بناء دولة عصرية، وهدفها الأسمى تحقيق الأمن والرخاء والازدهار.

لماذا كانت البداية من صلالة؟

وماذا تمثل هذه المنطقة؟

وما عمقها الحضاري، في ضوء حداثتها الحاضرة؟

وماذا يقول العلم عن احتوائها لقوم عاد وثمود ومدينة إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد؟

وإلي لم يخلق مثلها في البلاد؟

وإلي أي حد تبوح الآثار بالكثير من الأسرار؟

أما قبل..

ساعة أن تهبط في الغلاف الأرضي لظفار، إذا كنت محلقاً بالطائرة أو قادماً بالسيارة، فإذا ببريق تلامسه عيناك في النظرة الأولي، والتي تستدعي منك أن تتمهل لتتأمل فتجمل، إذ كنت من الكاشفين للجمال، والمكتشفين للأناقة، والعارفين بالأسرار.

ثمة نور حضاري لا يزال حيا، ومصدرة أصداء تلاقي حضارات الشرق القديم، علي شفاه هذه المدينة، يناديك إذ كنت من الباحثين عن الحقيقة، ويناجيك إذ كنت قد جئت لقضاء بعض من الوقت، بعيدا عن توحش التكنولوجيا العصيبة، لتلتقط أنفاسك علي صدر الطبيعية المغلقة بجماليات لم يطمسها إنس ولا تكنولوجيا، والمغلقة في أكمام تتفتح رويدا رويدا، وبشرطها هي، ولكن عليك أن تحدد خطواتك فيه، أتريد التاريخ وشواهده؟ أم الجغرافيا بمشاهدها؟ أم الحداثة بتداعياتها؟ أم الجمال بجلاله؟ أم الإنسان بظلاله، وهو الأصل والفصل والوصل؟ أم أنك تريد كل أولئك؟

وأبداً.. لا يمكن لهذه العطاءات الربانية، في هذه القطعة من أرض الله الواسعة، إلا أن تكون رسائل تشف عن الماوراء، يتلقاها من يسبح في الملك، ويطوف في الملكوت، ولا بد أن تأخذها علي محمل التأويل.

الجبال الصلدة التي هي في الأصل تمر مر السحاب، يراها الفؤاد وقد زالت عنها الوحشة، واحتجب عنها التوحش، لتصبح مستأنسة باخضرارها واتساعها وامتدادها وإغراءاتها، حتى تخفض جناحها للزائرين في روعة ألوانها الخضراء، وعيون الماء المنسابة في نافورات وتشكيلات تلقائية يحنو عليها البحر حين يخشع هيجانه وتستلقي موجاته على الشواطئ، فتتحدر ثم تتخدر ثم تستسلم وتسلم.

رذاذ المطر اللاعصبي يتحول إلي خيط يربطك بالماوراء، يجعلك في حوارات متصلة ومتقطعة، تحتويك بأنك موصول بأسباب السماء، لست وحدك هذا مؤكد.

أشجار اللبان، وهامات النازجيل، وقدود النخيل تشمخ في اللامحدود، سامقة هي، شاهقة هي، مثمرة هي، تسديك طيباتها جنية، وهي أكبر من مجرد ثمار يانعة، وفواكه مما تتخير، أنها وموز

طبيعية، وعناوين تاريخية وسلاسل حضارية، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا للمنعم البديع ذي الجلال والإكرام.

الجذور من الواقع والمنظور

لا نمو بدون جذور" هذه حقيقة، كما جاء في حديث السلطان قابوس بن سعيد لدورية" ميدل إيست"- لندن ١٩٩٤- والبحث عن الجذور يكشف عن كنوز معرفية ونبوءة مخبوء في ضمير الغيب، تطفي الكثير من علامات الاستفهام، وتهدئ من روع علامات التعجب بما يتكشف من أسرار تومض وتختفي، وبما ينكشف من إصرار علي التمديد الحضارى والامتداد في الحاضر والجذور هي أحد المفاتيح الكبرى لعمان الحديثة، وقد كانت مستغلقة علي الانفتاح بعضا من الوقت . ولنبدأ بـ (الجذور) لكن العودة إلي الجذور ، تنطلق من الواقع المنظور، لا سيما أن التداخل في الأزمنة يشكل نقطة ارتكاز في الرؤية العمانية المعاصرة. لا يستغرقنا التاريخ في حد ذاته، بقدر ما تعنينا دلالاته، وصولا إلي اللحظة الحاضرة، والتي بدورها تتبادل الكشف معه، تأثيراً وتأثراً، في علاقة عضوية ذات أنسجة متداخلة، وخلايا متشابكة، وفي هذا السياق يؤكد علماء التاريخ، أننا ندرس الماضي لنفهم الحاضر، وندرس الحاضر لنستطيع توجيه المستقبل، فالتاريخ هو سياسة الماضي، وعلي ضوء هذا القول يكون الحاضر جزءا منه، لأنه نتيجة وثمرة للسياسات الماضية، وعلي أساس من فهم الحاضر وسياساته واتجاهاته، يمكن تصور المستقبل وحسابه وتوقعاته. وهذا ما يسمي بالتخطيط للمستقبل. وعندما يتم التخطيط لبلد ما خلال الخمسين سنة القادمة، فإن ذلك يعتبر مقدما تاريخ هذه الخمسين سنة القادمة أو، علي الأقل، رسم مسار التاريخ القادم خلال هذه الفترة كما يراد له أن يكون.(كما يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه " الحضارة" ص ٧١، الكويت، عالم المعرفة،١٩٩٨) لكن التاريخ وحده لا

يكفي، إذا أن الجغرافيا هي صانعة التاريخ، وهي الحقيقة الثابتة في كل التواريخ، يتغير الزمن بتدفق تيار التحول الإنساني، فتصير وقائعه من حال إلي حال وتستحيل قراءة التاريخ. أي تاريخ بمعزل عن الأثر الحاكم لعامل الجغرافيا في صناعة وقائعه، علي حد تعبير (محمد حسنين هيكل، مصر والقرن الحادي والعشرون، ص٥، دارا الشرق، القاهرة) ولقد أراد جلالة السلطان قابوس بن سعيد، أن يدخل عمان إلي قلب التاريخ المعاصر، والذي توارت خلف أستاره بعضا من الوقت بفعل ظروف خارجة عن الإرادة، ليعيدها أفضل من سيرتها الأولي، وبروح العصر.

كان السلطان قابوس ومنذ البداية، واعيا وعيا فلسفيا لدور التاريخ وأهميته وحركته كعنصر فعال في بناء الشخصية العمانية، وتعميق الشعور بالانتماء الوطني، والربط بين الماضي والحاضر والمستقبل في منظومة متناسقة، فأراد أن يزرع في نفوس العمانيين الثقة والأمل، وينزع منها الخوف والجزع، والإحساس بتناثر الذات وتمزقها. إنه يقول: كان لزاما علينا أن نبتدئ من الأساس ومن واقعنا، وهذا الأساس هو الشعب في عمان وقد سلكنا مختارين أصعب السبل لنخرج به من عزلته وتأخذه بعيدا إلي طريق العزة والكرامة، وفي نفس الوقت تحملنا مسئولية حمايته من التمزق والضياع، وإحياء حضارته، واستعادة أمجاده، وربطه ربطا وثيقا بالأرض، ليشعر بعمق الوطنية، ومدي التجاذب بين الإنسان العماني وبين أرض عمان الطيبة.٠ (خطب السلطان قابوس بن سعيد،١٨ نوفمبر ١٩٧٢م).

ظفار في عيون المؤرخين

يذكر أبو الجغرافيين" الإدريسي" أن ظفار كانت محط أنظار الغزاة. وقد تعرضت عام ١٢٦٥م لغزو دمرها ثم أعيد بناؤها باسم "المنصورة" وهي المدينة التي عرفت في العصور الأُسلامية باسم " البليد" كما يذكر المؤرخ العماني المعروف ابن رزيق، ولكن المسألة في نظر

المحللين ليست مسألة احتلال أو تبعية، إنما، كما هو معروف، فإن أية بؤرة غنية وثرية وسط منطقة صحراوية قاحلة، تعد مصدرا للأطماع.

ويتعرض الرحالة الشهير" ماركو بولو" في عام ١٢٨٥هـ لازدهار ظفار وثرواتها، ويقول أنه كانت هناك حركة ملاحية بينها وبين الهند، وكان التجار يحصلون علي أعداد كبيرة من الجياد العربية، ويحققون أرباحا وفيرة، وكانت المدينة تتبعها قري عديدة، وهناك يتم إنتاج الكثير من اللبان الأبيض.

والرحالة العربي المعروف" ابن بطوطة" يروي وصفا لظفار في القرن الرابع عشر فيقول: إن أسواقها من أكبر الأسواق وكانت مشهورة بالأسماك والفواكه. ويقول عن أهلها إنهم" متواضعون"، مهذبون، مستقيمون، ودودون للغرباء، ثيابهم من القطن المستورد وهم يربطون "سارونج" علي وسطهم بدلا من السروال، ويستحمون عدة مرات في اليوم الواحد وفيها الكثير من المساجد، وبكل مسجد مقاصير خاصة بالوضوء، ووصفها "ويندل فيليبس" بأنها "جنة المناظر الخضراء"

ويقول" برترام توماس" عن رحلته من صحار عبر الربع الخالي إلي الإمارات عام١٩١٠م والذي ضمنها كتابه" البلاد السعيدة" : إذ كانت هناك منطقة في شبة الجزيرة العربية تصدق عليها هذه التسمية، (يقصد البلاد السعيدة) إذا استثنينا اليمن بأمجاده التاريخية. فهي بحق المنطقة التي تسمي ظفار. والتي تشكل في مجموعها خميلة من الغابات الخضراء التي تفترش المرتفعات الجبلية المطلة علي البحر، والجداول الرقراقة والحقول السندسية والسهول التي ترصع أديمها الأشجار والنباتات والأعشاب". (فاروق خورشيد، في بلاد السندباد، ص٤٢٦، دار الهلال١٩٨٦م).

والاخضرار هبة طبيعية في صلالة وظفار كلها، وما" مهرجان الخريف" الذي تقيمه محافظة ظفار كل عام، إلا استثمار عصري لهذه المنحة الإلهية التي اختص الله تعالي بها ظفار دون سائر مناطق الجزيرة العربية والمنطقة في عمومها، واستطاعت صلالة أن تجعل مهرجان الخريف قادرا علي أن يسوق نفسه بنفسه، بما تتمايز به الطبيعة في صلالة، في هذه الآونة بالذات حيث تختلف عن أية منطقة في الخليج ببرودة أجوائها وهطول الأمطار فيها، واللون الأخضر الذي يكسوها ويحولها إلي روضة تسر الناظرين، في وقت تعاني فيه المنطقة من الطقس الحار اللافح، وهذه هبة من الله تعالي للمنطقة الجنوبية في سلطنة عمان.

عطر الشرق وجماليات المدنية

صلالة لها في التاريخ مكانة عالية، ولها علي الجغرافيا مكان مميز، هي كنز الجمال الطبيعي الجميل. حباها الله تعالي هبات كثيرة وثرية، فانعكست ظلالها علي الإنسان والزمان والمكان في هذا الجناح الجنوبي من عمان الذي يجمع بين عطر الشرق العريق وجماليات المدنية الحديثة، فاتخذت صلالة خصوصية غير مألوفة. هذه الخصوصية جعلت الكتاب المعاصرين يصفونها بأنها جنة المناظر الخضراء، ليتواصلوا مع المؤرخين والجغرافيين والرحالة القدامي في رؤيتهم لهذه المنطقة العمانية ذات العمق التاريخي والحضاري حيث ساهمت هذه المنطقة في تشكيل مساحات واسعة من الحضارة العمانية في العصور القديمة والوسيطة كما شاركت بدور ملحوظ في تاريخ عمان المعاصر لا سيما القريب منه. فمن صلالة انطلق نداء النهضة جامعا كل أبناء عمان داعيا إياهم للانطلاقة الكبرى نحو التغيير معلنا للعالم أجمع "فاتحة عهد جديد "غير مجري الحياة في عمان.

يروي حفيظ الغساني في مذكراته حين أوشكت شمس يوم الخميس الثالث والعشرين من يوليو ١٩٧٠م علي الغروب فإذا الناس في شوارع صلالة يهرولون في كل اتجاه هاتفين "قابوس حكم.. قابوس حكم" وبعد دقائق انفتح باب "قصر الحصن" لتندفع جماهير الناس إلي الداخل يبايعون جلالة السلطان قابوس وما هي إلا ساعات قليلة حتي طار النبأ الجديد إلي كل أنحاء الدنيا، وعمت الفرحة كل جنبات عمان من أقصاها إلي أقصاها، وبدأت معركة البناء والتعمير في كل الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية علي صعيد العمل الداخلي وعلي المستوي الخارجي. هذه هي صلالة التي تسكن في حنايا قلب واحد من أبنائها، هو شاهد علي التحولات العمانية الكبري، وعلي عصر من التنوير والتعمير والتطوير، تتعاظم فيها مشاهد البناء والرخاء والوفاء، يتجاور السهل والجبل، تتحاور الصحراء والاخضرار، يتعالى هدير المصانع وتلقائية الحرف اليدوية، ويتناغم حداء سفين الصحراء مع الأمواج حين تجوبها أشرعة الصواري، وتتمازج أصالة المأثورات التقليدية مع حداثة الفنون.

روحانيات النبي داود

لحظات اختراف لأعنف الجبال في ظفار طريق عملاق لا يعبأ بالصخور، إنما ينساب، ولك أن تتخيل مدي الجهد والمال الذي بذل من أجل تعبيده، تظل السيارة تعانق الطريق مثلما تعانق العيون مساحات الخضرة الممدودة، وتستقبل رذاذ المطر الحاني ووشوشات النسيم الكريم في عطاءاته، وهمهمات الهواء النفي في هفهفاته، واحتضان الشواطئ لموجات البحر التي تهفو إلي الراحة هي الأخرى. تصاعد السيارة، لتخشع وهي تدنو من ذلك المكان العلوي.. لماذا؟ يرق جبل " أتين" الذي يتلطف سهلا، يدثر المكان بشيء من الرهبة، ويشي بروح ديني ينفح الزائر

بمسحة من الشجن، أشجار كثيفة، دوحة من الجمال، وهالة من الجلال تنبعث من قبر نبي الله" أيوب" عليه السلام. الجسد مسدى متمدد في ضريح بسيط لا يرتفع عن الأرض إلا قليلا.

تتناثر حواليه بعض الكتب وحمالات للقراءة، وآيات كريمة تشرق في جنبات المكان، وأضواء خفية خفيفة، ودعوات تبتهل بها نفوس الزائرين وتتجلي في النفس القيمة الكبرى لصاحب المكان عليه السلام (قيمة الصبر والتحدي).

" وأيوب إذ نادي ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين". تتجلي هذه الآية الكريمة عنوانا لهذا المشهد، ويدخل معنا فيه أيضا الكاتب فاروق خورشيد، الذي زار هذا المكان وقدم رؤيته وشهادته وانطباعاته وأحاسيسه إزاء المكان وصاحبه، في صورة من الأدبيات الفنية وهو الذي قدم منذ ربع قرن مسرحيته عن النبي أيوب وتتبع شخصيه في كل المصادر واستهواه موقف التحدي الذي وقفه أيوب من رهان الرب مع الشيطان حين ذكر الشيطان أن أيوب عبد صالح لأنه غني، ولأن الله أعطاه كل ما يشكره عليه ويعبده من أجله، فكان الابتلاء والامتحان وكان التصدي والتحدي، ثم كان الصبر والنجاح والانتصار.

(قال الرب: لي عبد صالح في أرض "عوص" تبرأ وخلص، صافية نفسه، فكان نعم العبد الصالح. قال إبليس: ما عبدك إلا لنعمك عليه فأطلق يدي أدمر ما أنعمت به، ستراه يكفر. قال الرب: فأطلق يدك ولن يكفر أيوب، فأيوب صابر صالح.

وانقضت الصواعق تحرق مخازن الغلال وأشجار الفاكهة ومزارع الكروم والخضرة، وصبر أيوب، ورفع كفيه ضارعاً للرب وقال: أنت أعطيت، وأنت أخذت، والحمد لك فيما أعطيت وفيما أخذت، تقدس اسمك وتقدست آلاؤك واهتزت الأرض زلازل فدمرت المساكن العامرة،

ومات تحت أنقاضها الأبناء والبنات قرة العين وأمل الفؤاد، ومعني أن يكون للإنسان وجود علي الأرض.

انهارت الجدران الصلبة، فتحطمت تحتها الأجساد الرخوة، وضاع معني الوجود نفسه، حين ضاع أبناء أيوب حين رفع كفية للرب وقال: ما كان الأولاد إلا منحة منك، فحين جاءوا كانوا درة نعمتك. وحين ذهبوا كانوا اختبار طاعتك. فالحمد لك فيما أعطيت وفيما أخذت. تقدس اسمك وتقدست آلاؤك. وهبت الريح الصرصر السموم، تحمل الجراثيم والموت، وانقلبت الماشية ترفع أقدامها مستسلمة إلي الموت المخيف المنتشر العاتي، ألف ألف بقرة، ألف ألف ناقة، ألف ألف كبش ونعجة وعنزة، اجتاحها الموت الزاحف، وشرعت عيون صماء إلي السماء، وتعفنت جثث كانت تحمل الثروة والجاه، وضاعت الثروة وضاع الجاه. ورفع كفية ضارعا للرب وقال: ما الأبقار والأغنام والإبل إلا رمز رضاك: فإن منحته لي فالحمد لك، وإن أخذته مني فالحمد لك.

يرتفع الإنسان وسط الناس بما أعطيت، وينخفض قدرة بما أخذت. ولكن الإنسان أمامك هو هو. الحب لك، والشكر لك، والرضا والقناعة بما أعطيت وأخذت. أنت أعطيت، وانت أخذت، والحمد لك. تقدس اسمك، وتقدست آلاؤك. وزحف العفن إلي الجسد فشاخ بناؤه، انحلت الأعضاء والعظم وهن والقروح ملأت الجلد واللحم، وتقيحت حتي نفرت الزوج والصحاب، والطعام يحمل إلي عذابي، فلا آكله خوف التعاسة والألم، خبزي عذابي، وحنطتي شقائي، وجرعة الماء هول يمزق جسدي، والدود يقفز مني إيذانا بأن الجسد ضاع ولا نهاية لهذا العذاب المقيم. من أنا حتي ترزح بعذابك علي. من أنا حتي تأكلني بقوتك. من أنا. وما أنا يا رب الوجود العظيم. تقدس اسمك وتقدست آلاؤك. وهب أهل عوص، قالوا كفر أيوب، فحق عليه النفي من الأرض النقية التي لا تعرف إلا الصالحين، ملعون مطرود هو، مشرد، فقد رفع

صوته علي الرب، ورفع أصبعه إلي السماء. وضحك إبليس ضحكة الانتصار وقال: ضاع أيوب وكفر، حين ضاعت منه نعمتك وسبلت عنه عطاياك.

تقدس الرب وعلا، فكلمة الرب هي العليا، أيوب عبد صالح، وما كلمات أيوب إلا الصدق، فما كفر وما عصي، وإنما اشتكي وتضرع، غفر الله لأيوب، فارفع نقمتك عنه، فقد حوته الرحمة الكبري والغفران الأعظم، وما عصي. لبيك نبي الله لبيك. ثم لبيك نبي الله لبيك.

إن هذه الأرض هي أرض "عوص" التي جاء ذكرها في الكتاب المقدس، هذه أرض توحي وحدها معني الصراع إلي القمة، وتثبت للإنسان معني الخلود في مواجهة القمة، فهنا يلتقي الإنسان بالقمة، هنا يعرف الإنسان معني التحدي، وهنا ينطلق الإنسان. فهنا معني الحب المطلق، وهنا العذاب المطلق، ثم هنا الإيمان المطلق، أنا أحسن فأنا أفهم، أنا والأرض اتحدنا، كما اتحد بها من قبل أيوب، فأخرج كلماته، وسرقها وسرقة كله من سرقوا تراثنا وادعوه لأنفسهم. فأيوب من هذه الأرض، وهذه أرض "عوص" أنبتت هذه الرؤية العظيمة المتسعة للحب، كما امتدت عظيمة متسعة خضراء.

وبعد أشهر من هذه الزيارة كان الكاتب فاروق خورشيد في صنعاء، وفي منزل الدكتور عبد الكريم الإرياني، كانا يتحدثان عن سرقات اليهود لتراثنا كله. وحكي له هذه التجربة الروحية الفذة، وإذا بالدكتور يوسف عبد الله رئيس قسم الاثار بكلية آداب صنعاء، وعميدها السابق يقاطعه قائلا: عجيب ما تحكي لقد زار المستشرق (بري) عالم الآثار البريطاني، المنطقة الجنوبية كلها، ووقف عند الدلائل العلمية والحفائر التي تؤكد ما ذهبت إليه بتجربتك الصوفية هذه، وألف كتابا عن هذه المنطقة أسماه " أرض عوص" (فاروق خورشيد في بلاد السندباد/ ص٤٢٦، دار الهلال١٩٨٦)

أغلي من الذهب والنقط

وفي هذه الأجواء تتجلي شجرة اللبان، التي تتجاوز مجرد كونها شجرة نباتية، لتصبح رمزا كبيرا تاريخًيا واجتماعيا وجغرافيا وحضاريا، تتمايز به هذه المنطقة من العالم. وكم جرت محاولات عملية لا ستزراع هذه الشجرة في مناطق أخري غير صلالة، لكنها باءت بالفشل. في ظلال شجرة اللبان تتوارد إلي الخاطر، أشياء كثيرة، ومفاتيح للفهم، ومحاولات لكشف الأسرار وإيجاد التناغم بين العلاقات وتجارب لفك الرموز. علي مرأي من البصر، وفي سياق الحديث عن أسرار اللبان، تحدثك أثار مدينة " خور روري" أو"سمهرم" التي تعود إلي فترة الألف الأولي قبل الميلاد، حيث تتمتع هذه المدينة بفن معماري جميل من الحجر الجيري، وهي تقع علي الشاطئ الشرقي لشرم صغير علي الساحل، وعلي بضعة كيلومترات إلي الشرق من سهل صلالة، والمدينة محصنة بسور من الحجارة المتراصة بصورة محكمة، وقد تم الكشف فيها غن خمسة أحجار كتب عليها بالأيجدية العربية الجنوبية، وتصف تأسيسها، وأنها بنيت لهدف رئيسي وهو تأكيد السيطرة علي تجارة اللبان والبخور الذي يجمع فيها ويصدر إلي الخارج، كما تم الكشف عن آثار معبد قديم شيد في وسط الجانب الشمالي للمدينة، وقد عثر علي جدرانه الثلاثة مع مذبحين، ووجد نحت لصورة ثور علي أحد المذبحين، وهذا يدل في نظر العلماء علي أن الإله الذي كان يعبد في المعبد هو إله القمر، لأن الثور يمثل في الديانة الحميرية إله القمر، كما وجد حول المذبحين آثار رماد للقرابين التي كانت تقدم عليه، وتشتمل علي بقايا عظام الأسماك ومواش وطيور كالدجاج، وأيضا بقايا قليلة من اللبان. ومن الأثريات التي تم العثور عليها في هذا الموقع تمثال برونزي صغير لقناة هندية تعزف علي الناي. وتمكن أهمية التمثال في وجوده في الموقع حيث يعتبر دليلا علي وجود علاقات تجارية بين الهند والجزيرة العربية.

كما عثر أيضا في نفس الموقع علي مجموعة من القطع النقدية البرونزية البالغ عددها أربع عشرة قطعة، بالإضافة ألي جرس برونزي يحمل اسم إله المدينة.

ولما كان اللبان السبب الأكثر بروزا عبر التاريخ في شهرة محافظة ظفار، فقد شغلت ظفار مساحة حضارية هامة في التاريخ القديم، بحكم كونها مصدرا إساسيا لهذه الماده إلي جانب الصمغ حيث كانا في مقدمة السلع التي حظيت باهتمام كبير في تجارة العصور القديمة مما أثار اهتمام المؤرخين الأوائل منذ عام ٤٠٠ قبل الميلاد، بداية من "هيرودوت" ثم "بيليني" و"بطليموس" وانتهاء بـ "استرابو" و"ديودورس" وجميعهم قد تركوا انطباعا عن أهمية اللبان والصمغ في تجارة العالم القديم، وأن الطلب علي اللبان كان لا يضاهيه الطلب علي أية سلعة أخري. وقد توصلت الدراسات المسحية التي أجريت في ظفار، إلي أنه اللبان كان ينقل بالبر والبحر لأنحاء متفرقة من العالم القديم، وكان ميناء راس فرتاك (جبال القمر) هو الميناء الذي يجمع منه المحصول للتصدير إلي اليمن، ونحو مناطق متفرقة أخري من آسيا عن طريق ميناء (عدن)، أما الطريق البري فقد كان يبدأ من غرب ظفار عن طريق (نجد) إلي جنوب الجزيرة العربية، ثم شمالا إلي (نجران) وحتي (غزة).

ولم يكتف العمانيون بتصدير اللبان وإنما صنعوا منه البخور بعد إضافة الشحوم إليه، نظرا لحاجة المجتمعات القديمة إلية في الطقوس الدينية، وفي العلاج التطبيب. وشكل هذا المنتج أهمية كبيرة في حركة التجارة خلال العصر والحجري الحديث (عمان في التاريخ، ص١٠٠) ونقرأ عن هذه البلاد- كما جاء في سفر التكوين- حدد الرب مناطق العالم ذاكراً أنها تبدأ شرقا من جبل سفار (أي ظفار) وإلي هذه البلاد جاء المصريون القدماء، بحثا عن اللبان ليستعملوه في تحنيط فراعنتهم، وربما كانت أعمدة النبي سليمان مدفونة بمكان ما في هذه المنطقة، هذا إذا لم

تكن ظفار هي نفس الجنة التي ورد ذكرها في التوراة، والسوق الثقيلة لتجارة العاج وريش الطاووس قديما.

يعتبر الباحث عبد القادر بن سالم الغساني من أول الباحثين في هذا المجال بكتابة (ظفار أرض اللبان) ويذكر من تاريخ الإسكندر الأكبر أنه أخذ من أرض العرب المنتجة للبخور كمية من البخور لإحراقها للآلهة تقربا إليها، ثم يذكر عددا من الحوادث تؤكد وجود علاقات منظمة بين البطالمة وبين بلاد اللبان والبخور، وخيبة هذه الحملات وتعثرها إذا يقول: " لقد كان البخور أو اللبان رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة. في ذلك العهد كان سعره يساوي سعر كل من الذهب والبترول في أيامنا هذه. ولم يكن يشتريه لغلائه هذا إلا رجال الدين لاستعماله في الشعائر الدينية التي تستنزف القسم الأكبر منه والملوك والأثرياء، لحرقه في المناسبات الدينية وفي اجتماعاتهم"

ويقول عبد القادر الغساني حول طرق التجارة: " وكان اللبان من أهم المواد التي تاجر بها العرب الجنوبيون، تاجروا بتصديره إلي بلاد الشام ومصر والعرق، وقد أشير في التوراة إلي قوافل سبأ، وهي قوافل كانت تسير من العربية الجنوبية مخترقة العربية الغريبة، إلي فلسطين فتبيع ما تحمله من سلع هناك، وقد كان السبئيون يسيطرون علي العربية الغربية حتي بلغت حدود مملكتهم أرض فلسطين".

وقد سارت حكومة سبأ علي سياسة التوسع التجاري، وهذا التوسع يقتضي السيطرة علي الطرق، بذلت جهدها سلطانها علي الطرق والمسالك وجعلها تحت نفوذها وحكمها، وبعد استيلائها علي بقية الحكومات العربية الأخرى وضعت الطرق الجنوبية المؤدية إلي أرض اللبان والمواد الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية، وإلي الموانئ والمرافئ التي تتاجر مع أفريقيا والهند

وتستورد منها السلع النفيسة الثمينة تحت نفوذها وحكمها فحسنتها وشقت طرقا جديدة لأغراض حربية واقتصادية وبلطت بعض المواقع فيها لتقاوم السيول والأمطار والامطار وأحكمت جوانبها وحصنتها بالحجارة الصلدة حتي تقاوم السيول التي تنحدر من المرتفعات علي هذه الطرق فلا تلحق الأذى بها. ويذكر الغساني أن طريق اللبان هذا كان يصل إلي غزة، وأن أول من إستخدمه كانت الملكة بلقيس في رحلتها إلي الملك سليمان. ورغم تداخل الأسطورة بالحقيقة فإن الطريق البري حقيقة واقعة زادت من هذه الروابط التي مزجت حضارات الجزيرة بعضها ببعض كما مزجت العطاءات الحضارية الأخرى التي عرفها أبناء الشمال من احتكاكهم بحضارات الشمال وبلادة، بالعطاءات الحضارية الأخرى التي عرفها أبناء الجنوب من احتكاكهم بحضارات الشمال وبلاده (عبد القادر بن سالم الغساني، في ظفار أرض اللبان، مسقط ١٩٨٤) وقد ارتبطت هذه المنطقة منذ القدم بالمعني الديني الموحد الذي هو جوهر الديانات السماوية التي نزلت بأرض هذه المنطقة هادية ومبشرة ومقدمة المعاني الحضارية في دفعات متتالية تبدأ باليهودية وتنتهي بالإسلام، كما أنها ارتبطت بما سبق هذه الديانات من محاولات إنسانية لمعرفة الله وعبادته عبادة قاصرة، ولكنها جادة في محاولات الاهتداء، إلي معني الوجود وروح الحق ومن هنا كان الارتباط بين مصر الفرعونية وأرض اللبان ومعني هذا علاقات مستمرة في التجارة والثقافة مع، وعلاقات متبادلة في المصالح والأفكار معا.

صوته لا يزال حيا!

حديث الآثار هو حديث مثير، بشفافيته وغموضه، يغري علي البحث والتقصي ويستدعي التأمل والتمهل، ويدعو إلي التعجب والإعجاب، فأنت مع التاريخ بأسراره وآثار، وحركاته وسكناته، وهيبته وحكمته، وبمصاحبة الجغرافيا السياسية والطبيعية بشواهدها ومشاهدها،

إذا لا يمكن إلا أن يقترن التاريخ بالجغرافيا بالناس والمجتمع. تتعمق صلاته ببعدها التاريخي وشواهدها العريقة وآثارها العتيقة مثل (البليد) هذا الموقع الأثري الذي تحيط به المياه مع جدار كامل بأبواب وسراديب ويوجد فيه فلجان متوازيان يجريان باتجاه البحر، وهناك مبان تاريخية تضم مسجدا وقصرا ومنازل ومزارات ثم (متحف صلالة) الذي يشكل جزءاً من التراث القومي، ويضم مقتنيات من الأعمال الأدبية وأحجار عليها كتابات قديمة، كما توجد من بين المقتنيان مجموعة من العملات ترجع إلي القرن الحادي عشر الميلادي، إضافة إلي فخاريات تعود إلي العصر الوسيط، ومخطوطات ووثائق تاريخية، وهناك قبر النبي أيوب، ويقع داخل مبني صغير تزينه قبة فوق سهل (أتين) تصل إليه عبر طريق عملاق معبد، تحيط به الروابي الخضراء، وتنشر حواليه البساتين وفيها (سمهرم) التي تشتهر بمينائها البحري الذي يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وقد أسفرت أعمال الحفر والتنقيبات عن وجود عملات ومخطوطات باللغة العربية، كما تضم (خور روري) الذي يشتهر بمناظره الطبيعية، وبه ضريح ابن علي، وميناء صلالة، وكثير من الحدائق والمطاعم، وحصن مرباط، وشاطئ المغسيل المشهور بنافورات المياه الطبيعية، وريخوت بمنعطفاتها، ثم (شطر. إرم) التي يعتقد بأنها موقع المدينة الضائعة (إرم ذات العماد) وتحمل بمناظر رائعة لشلالات المياه والبحيرات والجبال والكهوف والحياة البرية والخضرة التي تغري السائح إغراء طبيعيا لزيارتها.

حتى لا تختلط الحقائق بالأساطير

لا تنظر الرؤية الرؤية العمانية إلي رصيدها الأثري علي أنه فقط حفريات، وشواهد علي الماضي البعيد، ومشاهد من التاريخ العريق بل هي أبعد من ذلك، بمعني أنها استثمار سياحي

علي المدي الطويل– إذا جاز التعبير– وعناوين حاضرة محملة بحضارة دالة علي التواصل والاستمرار.

المصدر الأساسي هو فكر جلالة السلطان قابوس بن سعيد، وفي بعده الأثري والثقافي والتاريخي علي وجه التحديد، يوم أصدر التعليمات بتشكيل لجنة وطنية للإشراف علي قسم الآثار في السلطنة، يرأسها معالي عبد العزيز بن محمد الرواس مستشار جلالة السلطان للشئون الثقافية، وزير الإعلام السابق.

تلكم كانت النواة العلمية، لعمل يتدثر برداء العلم، ورؤية تتخذ من البحث منهاجا وأسلوبا، وصولا إلي نتائج دقيقة خاصة أن الحقائق تختلط بالأساطير، وإن كانت الأساطير رموزا تعبيرية وتصويرية إزاء مواقف من الحياة والكون. وعلي مستوي الخريطة الأثرية للسلطنة، تجلت المعالم والملامح في أكثر من ٥٠٠ قلعة وحصن وبرج، تنتشر في كل جنبات عمان، بدأت كتحصينات عسكرية واستحكامات حربية، وأصبحت الآن تشكيلات جمالية ووحدات معمارية يحاول خبراء الآثار أن يستنطقوها لتبوح لهم بأسرارها، ترسل الكثير من القيم النابعة من هذا (الماضي) الأثري إلي (الحاضر) العماني، حتي أن منظمة اليونسكو ضمت بعض هذه الآثار إلي قائمة التراث الإنساني.

كانت اللجنة هي بداية البحث العلمي في مجال البحث الأثري والتاريخي في محافظة ظفار، وإن كان ثمة جهود، جاءت في صورة أبحاث متفرقة منذ عام ١٩٨٩م وأعمال أولية قامت بها بعثة "ترانس أريبيا" ابتداء من عام١٩٩٠ وفي عام ١٩٩٢ طيرت وكالات الأنباء نبأ هاما، أقام الدنيا ولم يقعدها بعد مجال الآثار. وكان مصدره البعثه الامريكيه التي كانت مكلفه بالتنقيب عن الاثار

فقد اكتشفت بقايا مدينة غائصة في رمال الصحراء العمانية في محافظة ظفار، وأن هذه المدينة تتميز بأعمدتها العالية وأسوارها الضخمة، وأن الظن يتجه إلي الترجيح بأنها مدينة" إرم ذات العماد" التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

وكانت البعثة الأثرية قد استعانت بمجموعة من صور الأقمار الاصطناعية التي التقطتها في صحراء الربع الخالي.

مدينة "إرم ذات العماد"

والذي حدث أن المسح الذي تم في عام ١٩٩٠م أثبت وجود ما لا يقل عن ثلاثة أنواع من الفخار، تم اكتشاف جدار سمكة٩٠ سنتيمترا وارتفاعه ٥٠ سنتيمترا، جاء بعده اكتشاف آخر لبداية (برج) أعقبه اكتشاف برج آخر في الزاوية الشمالية الشرقية، وكونت جميعها- أي الأبراج- جزءا من بناية هائلة، ثم تم اكتشاف بقايا طوب سقط من السقف ليجيء اكتشاف البرج الثالث في شكل مربع، كما اكتشف عدد من الغرف يبدو أنها بنيت في أزمان لاحقة، وتمكن المكتشفون- في حينه- من تنظيف صحن القلعة وبقايا باب المدخل الرئيسي، بعدها تم اكتشاف البرج الرابع علي شكل حدوة حصان، ومن بعده برجان آخران، والمباني الرئيسية محاطة بسور كبير وهي عبارة عن عدد من الغرف الكثيرة.

كانت تلك هي المكتشفات الأثرية المعمارية تحت رمال منطقة (شصر) التي تقرر أن تكون مقرا للحفريات منذ السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٩٢ ومن عالم ١٩٩٥ يتركز البحث حول دراسة هذا المبني الضخم المحاط بأبراج المراقبة الستة. تصغي إلي البروفيسور يوري زارنز من جامعة ساوث وست ميسوري بالولايات المتحدة الأمريكية والذي يشارك في عمليات البحث والاستكشاف في منطقة شصر بمحافظة ظفار وهو يقول في بحث خاص حول هذه

الاستكشافات :استطعنا تحديد العصور التاريخية للمبني من واقع الأدوات والأواني الفخارية والزجاج وأواني البخور، وتتراوح تواريخها من نحو ١٠٠ سنة قبل الميلاد حتي العصر الإسلامي (٩٠٠-١٤٠٠م) وأورد البروفيسور زارنز إشارة إلي أن زلزالا خفيفا ضرب المدينة والمبني أدي إلي تدميرهما. ويعلق الباحثون علي ذلك بأن ما يسميه البروفيسور الأمريكي بـ (الزلزال الخفيف) هو (الصيحة) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والتي ذهبت بمدينة إرم.

ويتواصل البحث والاستكشاف ليتمكن المكتشفون من تسجيل وترقيم حوالي ٢٥٠٠ من الأدوات والأواني التي عثروا عليها خلال موسمين من العمل، وتتراوح بين المصنوعة من السراميك والمصنوعة من الحجر، بالإضافة إلي عظام حيوانات وأصداف معدنية ونماذج أدوات أخري من العصر الحجري الحديث كالفؤس الحجرية والأمواس والسكاكين والمرايا المصنوعة من الحجارة، من المعادن وأحجار للطحن، وجميعها شواهد علي أن الموقع كان مأهولا منذ العصر الحجري عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد وظل يستخدم في العصر الحجري الحديث وحتي نحو عام٢٠٠ فبل الميلاد.

ولا نزال نستمع إلي تحليل المكتشفين في محافظة ظفار بأن أول بناء رئيسي بدأ فيما بعد عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، وعندما جاء العصر الحديدي (بداية عام ٥٠٠ ق م) كان الموقع (مأهولاً) بدليل وجود أواني السيراميك المصقولة باللون الأحمر وجميعها في شكل (طاسات) منها الشكل المخزف بالنقاط، وهو النوع المتواجد في عمان منذ العصر البرونزي، وتواصل استعماله في ظفار خلال العصر الحديدي.

ومـع اكتشـاف أوني السـيراميك، ثم اكتشـاف نـوع آخـر مـن الأواني المعاصـرة، مثـل المصـابيح المصنوعة مـن الحجـر الرملي والمباخر والأواني المصنوعة مـن الحجـارة وأوان أخري، ومعظـم المـواد والأواني الجميلة يعود تاريخها إلي القرن الأول قبل الميلاد.

وقد أثبت تحليل العمر التاريخي بواسطة ما يسميه الأثريون معادلة كربون ١٤ أثبت أن منطقـة (شصـر) بمحافظة ظفـار كانت معاصرة للعصرين الإغريقـي والرومـاني حتي القـرن الخامس الميلادي، وكانت آخر فترة تاريخية- في شصر- تعود إلي القرن الثالث عشر حتي السادس عشر المـيلادي، ويسـتدل الأثريـون علـي صـحة ذلـك بوجـود الأواني الصـينية الأصـل والزجـاج الملـون بالأخضر كدلالـة علي ازدهـار التجارة- علي حد قولهم- ويخلص المستكشفون الأثريون إلي أن موقـع (شصـر) يمثـل المركـز الرئيسي للتجـارة البريـة المتجهـة نحـو الشـمال، والـتي بـدأت مـن العصـر الحجري الحديث، والتي يؤكدون ارتباطها بالنشاط التجاري بين ظفار ومنطقة شمالي شبة الجزيرة العربيـة، حتي حضـارة سـومر في جنـوبي العـراق القـديم. وفي عهـدها الأول كانـت التجـارة تشـتمل علي العطور وخاصة اللبان، والارتباط التجاري بين ظفـار وسومر يؤكد امتداد تلك التجارة نحو الغرب حتى غزة الفلسطينية ومصر القديمة. ويقول المستكشفون أن منطقة (شصر) ظلت مزدهرة خلال العصر الإسلامي عبر تجارة البخور والخيول، وكانت مرتبطة مع منطقـة الربع الخالي من ناحيـة وسـاحل ظفـار مـن الناحيـة الأخـرى، إلا أن هـذا الموقـع صـار مهجـورا منـذ أوائـل القـرن السادس عشر الميلادي، وفي عدد من المواضع الأخرى تم اكتشاف موقع يبعد ٢٥ كيلو مترا إلي الشـرق مـن شصـر يعـود تاريخه إلي العصـر الحجـري الحـديث، كمـا تم العثـور علـي أدوات حجريـة تعود إلي عصور موغلة في التاريخ، وهو ما يشير إلي أن الإنسان العماني- كما يؤكد البروفيسور زارينز- كان متواجدا فوق ترابه منذ ما بين ٥٠ ألفا إلي٣٠ ألف سنة ماضية.

وإلي أن ينتهي العلم من تأكيد كلمته، يظل البحث مستمرا ومستضيئاً بإشارات كثيرة من المصادر التاريخية إلي (أهل عاد) ونشاطهم في تجارة البخور، وتأكيدات علي أنهم كانوا يسكنون في منطقة (أوبار) أو (وبار) وأن هذه الإشارة تأتي تحت اسم (الأحقاف) لكن لا يصعب علي الباحثين اليوم تحديد جغرافية موقع الأحقاف لكن لا يصعب على الباحثين اليوم تحديد جغرافيه موقع الاحقاف، بأنها تقع في المناطق الواقعة شمال جبال ظفار، والممتدة إلي حدود الجمهورية اليمنية، وهي نفس المنطقة التي اكتشفت فيها البعثة الأثرية الأمريكية، مستندة إلي صور الأقمار الصناعية، أبنية ذات أعمدة ضخمة غائرة تحت رمال الصحراء.

ومع أن القرآن الكريم لم يحدد فترة زمنية معينة عاش فيها قوم عاد، إلا أنه تحدث عن معاصرتهم للنبي هود– علية السلام– والذي يوجد قبره في محافظة ظفار أيضا. ومع ذلك، فإن البروفيسور زارنز يقول أن الإشارة في القرآن الكريم إلي (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) وتحديد ذلك بموقع معين في ظفار، ويظل محل بحث مستمر (ظفار مسيرة الخير، وزارة الإعلام ١٩٩٥م) والبحث لا يتوقف والعلم أيضا. ولننظر ماذا قال المؤرخون والمفسرون العرب والمسلمون عن (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد)؟

تضاربت الأقوال والروايات حول موقع مدينة (إرم ذات العماد) والتي كانت موطنا لقوم (عاد) إلا أن أبرز هذه الروايات، تلك الرواية التي جاءت في كتاب (البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي) بأن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، تقع في المنطقة ما بين محافظة ظفار وامتدادها غربا في الأراضي اليمنية، أما عن كيفية بنائها ومن هو بانيها، فتقول الرواية بأن (شداد بن عاد) كان جبارا ولما سمع بالجنة وما أعد الله فيها لأوليائه الصالحين من قصور الذهب والفضة، والمساكن التي تجري من تحتها الأنهار، والغرف التي من فوقها غرف، قال لكبرائه: إني

متخذ في الأرض مدينة علي صفة الجنة، وأوكل تلك المهمة لمائة رجل من وكلائه، وتحت يد كل منهم وضع ألفا من الأعوان، وأمرهم أم يختاروا أطيب تربة في هذه المناطق ومكنهم من الأموال.

ويقال أيضا- في نفس السياق- بأن شداد بن عاد كتب إلي عماله الثلاثة، غانم بن علوان، والضحاك بن علوان، والوليد بن الريان، يأمرهم أن يكتبوا إلي عمالهم في آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران فيبعثوا إلية، ثم توجه إلي جميع المعادن ليستخرج منهاما فيها من الذهب والفضة، وطلب إلي عماله توجيه الغواصين إلي البحار ليستخرجوا الجواهر فجمعوا منها أمثال الجبال، وتم تحميل كل ذلك إلي شداد بن عاد، ثم تم توجيه الحفارين إلي معادن الياقوت والزبرجد وسائر الجواهر فاستخرجوا منها أمرا عظيما، وتم ضرب الذهب ليصيح كالطوب حيث جري استخدامه في تشييد المدينة التي رصعت حوائطها الذهبية بالياقوت والزبرجد والعقيق وجعل لها غرفا من فوقها غرف، وكلها معمدة بأساطين الزبرجد والياقوت، ثم أجري تحت المدينة واديا ساقة إليها تحت الأرض أربعين فرسخا كهيئة القناة العظيمة، ثم أمر فأجرى من ذلك الوادي سواقي في تلك السكك والشوارع والأزقة تجري فيها المياه الصافية.

امر بطلاء حافتي النهر وجميع السواقي بالذهب الأحمر وجعل حصاه أنواعا من الجواهر المتعددة ألوانها ما بين الأحمر والأصفر والأخضر، ونصب علي حافتي النهر والسواقي أشجارا من الذهب تتدلي منها ثمرات من الياقوت والجواهر الأخرى، وجعل طول المدينة ١٢ فرسخا وعرضها مثل ذلك أيضا، وقام بتسويرها بسور عال، وبني فيها ثلاثمائة ألف قصر مفصصاً بواطنها وظواهرها بأصناف الجواهر، ثم بني لنفسه، بوسط المدينة وعلي شاطئ النهر قصرا منيعا عاليا يشرف علي تلك القصور الثلاثمائة ألف وجعل بابها يشرع إلي الوادي بمكان رحيب واسع

ونصب عليه مصراعين من ذهب مفصصين بأنواع اليواقيت، وأمر باتخاذ بنادق- جمع بندقة وليس بندقية- من مسك وزعفران فالقيت في الشوارع والطرقات، وجعل ارتفاع البيوت في جميع المدينة ثلاثمائة ذراع في الهواء، كما جعل السور مرتفعا ثلاثمائة ذراع أيضا في الهواء، مفصصا خارجة وداخله بأنواع اليواقيت وظرائف الجواهر، ثم بني سورا حول المدينة يضم أبراجا للمراقبة المرتفعة في السماء، وجميعها من لبنات الذهب والفضة لينزلها جنوده. ومكث في بناء المدينة خمسمائة عام.

تواصل الرواية سردها بأن الله سبحانه وتعالي، أحب أن يتخذ الحجة عليه وعلي جنوده بالرسالة والدعاء إلي التوابة والإنابة، فانتخب لرسالته إليه النبي هود عليه السلام، وكان من صميم قومة وأشرافهم وهو في رواية (الأنساب) كما جاء في كتاب الحموي أنه هود بن خالد بن الخلود بن العاص بن عمليق بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. دعا هود شدادا بن عاد إلي الله تعالي وأمره بالإيمان والإقرار بربوبية ووحدانية الله عز وجل، فما كان من شداد إلا التمادي في الكفر والطغيان، حين تم لملكة أربعمائة سنة، فأنذره بالعذب وحذره من زوال ملكة فلم يرتدع عما كان عليه، ولم يجب هودا لما دعاه إليه، ووافاه الموكلون ببناء المدينة ليخبروه بأمر الانتهاء من تشييدها كما أراد، فعزم علي الخروج إليها وسط جنوده، وفي ثلاثمائة ألف من حرسه ومواليه، اتخذ مساره نحوها بعد أن خلف علي ملكه بحضر موت وسائر أرض العرب- كما يقول الحموي- ابنه مرشد بن شداد الذي كان مؤمنا بهود عليه السلام، وحين اقترب شداد- وسط رجاله- من المدينة الموعودة، ودخل إلي جزء منها، عند تلك اللحظة جاءت الصيحة من السماء فمات هو وأصحابه، وغاصت المدينة في الأرض، وتلك هي الرواية الأولي.

وتجمع التفاسير حول الآية التي ورد فيها ذكر (إرم ذات العماد) في سورة الفجر، أنها ذات البناء الرفيع التي كان أهلها يسكنون بـ (الأحقاف) وهي الصحراء الممتدة بين عمان وحضر موت، وفي تفسير (التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي تلك التي لم يخلق مثل سكانها في قوتهم وشدتهم وضخامة أجسامهم، وكان المقصود من ذلك هو تخويف أهل مكة بذكر ما صنع الله بعاد- أهل إرم- والذين كانوا أطول أعمارا وأشد قوة من كفار مكة. وقيل أيضا أن (إرم) وهو سام بن نوح بن عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. ويقول ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد منهم: إرم بن سام، ومن أبنائه العمالقة والفراعنة والجبابرة، وقد جاء ذكر (عصر الجبابرة) في كتاب العهد القديم أيضا

والرواية الثالثة تقول إنه كان لعاد ابنان هما (شداد وشديد) وحين مات شديد خلص الأمر لشداد الذي سمع بذكر الجنة فقال: "ابني مثلها" فبني (إرم) في بعض الصحاري. وتصف هذه الرواية (إرم) بأنها مدينة عظيمة (قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت) وحين تم بناؤها سار شداد بأهل مملكته، فلما كان علي مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم (صيحة) من السماء فهلكوا.

والرواية الرابعة وردت في الجزء الأول من البداية والنهاية لـ (ابن كثير) وهي تقول أن (عاد إرم) أول أمم عبدت الأصنام (كانوا عربا جفاة كافرين عتاة متمردين) فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم فكذبوه وخالفوه، لكن (ابن كثير) يؤكد بأن (عاد إرم) كانوا يسكنون الأعمدة، سواء أعمدة الخيمة أو المباني العالية، كما يؤكد طول أعمار قوم عاد وقوة أجسامهم، إلا أنه ينفي أن تكون المدينة-إرم- من ذهب أو فضة.

زيارة إلي متحف أرض اللبان

نقوش ...مخطوطات ...وثائق ... قلاع ... حصون.. حفريات ... مسكوكات ... فخاريات ... فضيات ... أسلحة ... وكائنات بحرية.. وتشكيلات من صخور يقدر العلماء عمرها بـ٤٤ سنة، كل ذلك وأكثر، يحتويه متحف أرض اللبان الذي يشكل مصباحا أثريا يضئ بالماضي من التاريخ، والآثار والأسرار، والإصرار علي الوجود الحضاري. تحركنا في جنبات متحف أرض اللبان بقاعتيه.. تاريخيا وبحريا وسياحيا.. تجاذبنا أطراف الحوار.. بشرا وفكرا وأثرا. توقفنا مليا أمام المقتنيات.. سؤالا وبحثا وكشفا.. سافرنا في ذاكرة الأيام.. عبر الأزمنة وعبر الأمكنة.. إنها زيارة جديدة للتاريخ العماني تصحبنا فيها المعالم والملامح والسمات والقسمات زيارة يستقطبنا لها المتحف، مثلما يقدم إبحارا جديدا علي صهواته نرتحل ونري ونحدق.. ونشاهد ونرنو ونرمق.. وننظر ونناظر ونحقق وندقق. عمل موسوعي مادي قائم علي الشواهد والمشاهد، أبطاله الصور الموثقة، والصورة أصبحت الأصدق إنباء في هذه الآونة من العصر.

يتجلى (متحف أرض اللبان) أحدث معالم هذه المنظومة المتحفية بما يتسم به من شمولية في أقسامه الستة، وبما يحتويه من شواهد الجغرافيا التي لا بد أن تقترن بالتاريخ، وبما يستدعيه من عراقة تاريخية، وبما يتحلى به من قسمات جمالية، وبما يصوره من شرائح أثرية متنوعة، وبما يعرضه من رموز فكرية كامنة في جوهر الروح العمانية. يحمل متحف أرض اللبان رسالة يبثها عبر قناتين، الأولي هي " القاعة التاريخية"، والثانية هي " القاعة البحرية" والتاريخ والبحر عالمان واسعان في التكوين العماني، عبر عوامل الإنسان والزمان والمكان، وهي العوامل الثلاثة الحاكمة في تطوير البشرية.

يشـع متحـف (أرض اللبـان) بمفـردات متنوعـة مـن آثار ضـاربة في عمـق التـاريخ، ومخطوطات نادرة لعلماء عمان، ومدن كبيرة جادلت الزمن، وملامح مميزة في تاريخ عمان، ورموز لنقلات نوعية وتحولات مضيئة في عصر النهضة الحديثة.

يضم متحف (أرض اللبان) قاعتين هما قاعة التاريخ والقاعة البحرية حيث تشتمل قاعة التاريخ علي ٦ أقسام يجسد قسمها الأول جغرافية عمان وتضاريسها موضحا امتداد سواحلها مع جزرها وخلجانها لأكثر من ٣ آلاف و ١٦٥ كم، وبمساحة تصل إلي ٥٠٠ ألف و٣٠٩ كم مربع، والتي جذبت إليها الهجرات السكانية عبر التاريخ. كما يوضح القسم موقع السلطنة وما يمثله من منطقة تماس حضاري ساهمت فيه مع شعوب أخري في صياغة الأحداث التاريخية الهامة التي شهدتها المنطقة. ويشير القسم الثاني إلي عمان في الأزمنة القديمة شارحا مراكز الاستيطان التي تنوعت في أرجاء مختلفة من عمان منذ البدايات الأولي للحضارة الإنسانية المتمثلة بحضارة الصيد علي السواحل وحضارة إنسان العصر الحجري معرجا علي استقرار الإنسان وإتقانه الزراعة وتربية الحيوان والإنتاج البدائي لسد حاجاته من الغزل والنسيج والأواني الفخارية والأدوات المعدنية. كما تشير المعروضات بالقسم إلي العصر البرونزي الذي تمكن فيه العمانيون من استخرج النحاس وممارسة التجارة مع بلاد الجوار وبلاد الرافدين والهند والصين حيث قامت حضارة متعددة السمات كما تدل الشواهد والآثار في مختلف مناطق عمان فيما يشير القسم الثالث والذي يحمل عنوان(أرض اللبان) إلي أن ظفار أرض اللبان ظلت طوال العصور الماضية مصدرا رئيسا لإنتاج وتصدير اللبان موضحا أن الأرض حملت مسميات عديدة مثل "أرض عاد" و"بلاد بنط" و"بلاد الشجر". كما تشير المخطوطات بالقسم إلي الاعتقاد السائد بان الأحقاف التي ذكرها القرآن الكريم هي الأرض التي تقع فيها ظفار والتي عرفها الفراعنة والفينيقيون والإغريق

والرومان والفرس والهنود والصينيون ونعتوها بمسميات مختلفة وأقاموا معها علاقات تجارية ووصفوا ساحلها بشاطئ اللبان والبخور، وكان الإغريق يسمونه عمان. وفي القسم الرابع من قاعة التاريخ تحت مسمي "إسلام أهل عمان" يتعرف الزائر علي أن أهل عمان دخلوا الإسلام طواعية بعد أن وصلهم مبعوث الرسول- صلي الله عليه وسلم- عمرو بن العاص، ولذلك خلد الرسول ذكراهم بدعائه" رحم الله أهل الغبراء- أهل عمان- آمنوا بي ولم يروني"كما يبين القسم دعاء الرسول (ص) لعمان بالقول: "اللهم اهدهم اللهم زدهم العفاف والكفاف والرضا بما قدرت لهم اللهم وسع عليهم في ميرتهم وكثر خيرهم من بحرهم ولا تسلط عليهم عدوا من غيرهم"

ونذكر المؤرخات بالقسم قبول العمانيين برسالة التوحيد ومساهمتهم في نشر الإسلام عبر الفتوحات الإسلامية والمعاملات التجارية ودورهم البارز في علوم الفقه واللغة والأدب مما أعطي عمان هوية متميزة بالاستقلالية والتسامح والتي كانت من أقوم دعائم إقامة الدولة. ويمكن الإطلاع من خلال القسم الخامس بقاعة التاريخ بمتحف اللبان علي ملامح من التاريخ العماني حيث تروي المحطات التاريخية المختارة في هذا القسم جوانب مختلفة من التاريخ العماني ونماذج من الأحداث والوقائع التي كانت عمان مسرحا لها أو كان العمانيون طرفا فيها.

كما توضح المعروضات بسط عمان سيطرتها علي أنحاء مختلفة من ضفاف الخليج وبحر العرب والساحل الشرقي لأفريقيا بحلول القرن الثامن عشر لتؤسس بذلك حضورها القوي في المحيط الهندي وأصبحت مسقط من أهم الموانئ العالمية بفضل مهارة أبنائها التجارية والبحرية ومع ظهور الآلة البخارية وحضور الأساطيل الأوروبية إلي المنطقة تراجع الأسطول العماني وتواري دوره التجاري وانحسر معه دور عمان لفترة طويلة حتي قيام النهضة المعاصرة عام ١٩٧٠م.

ومن خلال القسم السادس والأخير والذي يشير إلي نهضة عمان المعاصرة يمكن الإطلاع علي ما حققته السلطنة من إنجازات عظيمة بقيادة صاحب الجلاله السلطان قابوس بن سعيد منذ تولية زمام الحكم والنهضة العمانية المعاصرة في عام ١٩٧٠م.

وتنقسم القاعة البحرية بالمتحف إلي ٧ أقسام حيث تشير المعروضات في القسم الأول إلي "التراث البحري" ومعرفة العمانيين بالملاحة منذ العصور القديمة ونشاطاتهم في ظل الازدهار التجاري لحضارتي بلاد الرافدين ووادي الإندوس وصولا إلي إقامة شبكة علاقات منتظمة لقرون طويلة مع الهند والصين والساحل الشرقي لأفريقيا وبلاد حوض البحر المتوسط ثم الملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية.

كما تظهر المحتويات مفردات البيئة البحرية ومهارات عمليات الإبحار ومفاصل تاريخية مهمة عن علاقه عمان بالبحر وتقف نماذج السفن العمانية التقليدية في هذه القاعة شاهدا قويا علي المهارة البحرية والإتقان في صناعة السفن.

وفي القسم الثاني والخاص بـ "البحر" تشير المعروضات إلي ارتباط سكان عمان بالبحر الذي يعد أحد مصادر العيش وسبيلا للتواصل مع الآخرين حيث أوجدت وسائل الصيد البدائية علاقة وجدانية بين العمانيين علي امتداد شواطئها الجميلة والمتنوعة. ويجسد القسم الثالث في القاعة البحرية بناء القوارب والسفن الشراعية ومهارة العمانيين في ذلك منذ آلاف السنين حتي أن البعض منها لا يزل يستخدم حاليا في عدد من المناطق العمانية حيث تشير المعروضات إلي المواءمة بين ما وفرته البيئة العمانية من إمكانيات وما تم الحصول عليه من مواد مستوردة من السند وبلاد الرافدين. وتضم القاعة البحرية قسما رابعا بعنوان "الإبحار" يشير في معروضاته إلي إهمية الملاحة الناجحة والطرق المستخدمة فيها بمعرفة مسارات النجوم وحركة الشمس والقمر

لتحديد الموقع والإلمام بقراءة تجمعات السحب ولون الماء والأمواج والاستعانة بالطيور في تحديد اتجاه اليابسة حيث يعرض القسم أجهزة قديمة وحديثة تساعد في الإبحار. ويبرز القسم الخامس "التجارة" حيث تشير المعروضات إلي اللبان الذي كان ينقل عبر موانئ سمهرم والبليد وريسوت والتعريف بميناء صحار الذي كان مصدر تصدير النحاس للحضارات القديمة والإشارة إلي تبادل تلك البضائع بالتوابل والعاج والحرير والخشب والذهب حيث تشير مخطوطات ووثائق صينية إلي أن أول البحاره العرب الواصلين إلي الصين كانوا من عمان عام٧٥٠م كما أن أحمد بن نعمان الكعبي كام أول مبعوث عربي يصل إلي الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٠م وأن السلطان سعيد بن تيمور كان أول حاكم عربي يزور الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٨م. ويجسد القسم السادس "واقع البحر الافتراضي " ويمثل نموذجا للسفينة البغلة وهي إحدي أنواع السفن الكبيرة التي كانت تستخدم للرحلات البعيدة من عمان إلي زنجبار وممباسا حيث يتم من خلال القسم التعرف علي المخاطر والمعاناة في مثل هذه الرحلات واللحظات التي تعبر عن فرحة العودة إلي الوطن. ويعبر القسم السابع والأخير عن النهضة، وهي مرحلة اختراع المولدات البخارية واستخدامها في السفن، الأمر الذي أدي إلي منافسة كبيرة بين الدول أدت بدورها إلي انكفاء الأسطول العماني المكون من السفن الشراعية وتراجعه في تلك المرحلة وانحسار المستوي المعيشي وصولا إلي دخول عمان في مرحلة جديدة مع شروق فجر النهضة عام ١٩٧٠م، حيث تفاعل العمانيون لبناء وطنهم والاستفادة من معطيات العصر الجديد كبناء الموانئ الحديثة واقتناء السفن المتطورة لسد حاجاتهم المعاصرة.

يقول معالي عبد العزيز بن محمد الرواس مستشار السلطان قابوس للشئون الثقافية : إن متحف أرض اللبان يشكل إطلالة شاملة علي عمان بمختلف مناطقها عبر الأزمنة، ويقدم المتحف موجزا

لتاريخ عمان من خلال قاعتين، الأولي للتاريخ ونماذج من الشواهد الأثرية عبر العصور، والثانية تحتوي علي نماذج مصغرة للسفن العمانية وموجز لعلاقة العمانيين بالبحر. كما يوفر المتحف للزائرين والباحثين ملخصا لمسيرة عمان عبر تاريخها الطويل، والذي لم يكن متاحا بطريقة علمية قبل بزوغ فجر النهضة المباركة بقيادة السلطان قابوس بن سعيد، الذي اطلق مسيرة التنمية الشاملة والمستدامة في كل الميادين عام ١٩٧٠ تفاعلت من خلالها عمان مع محيطها الإقليمي والدولي في إطار التعايش السلمي بين الدول، وتبادل المصالح بين الأمم، علي نهج ثقافة التسامح والسلام.

وحول اختيار منظمة اليونسكو لموقع أرض اللبان بمحافظة ظفار يقول أنها موطن شجرة اللبان وبلاد المنشأ والتصدير. ووضعها علي قائمة التراث العالمي، ولذا فإن هذا الاختيار يشكل قيمة مضافة لكنوز عمان الأثرية في منظومة التراث الثقافي والطبيعي التابعة لليونسكو استنادا إلي حيثيات علمية ومعايير عالمية: المنطقة الداخلية قلعة بهلاء وضعت علي قائمة التراث العالمي عام ١٩٧٨م وفي منطقة الظاهره، مواقع بات والخطم ووادي العين عام ١٩٨٨م وفي محافظة ظفار مواقع أرض اللبان وهي: مدينة البليد، ومدينة خور روري/ سمهرم، وشصر/ وبار، ووادي دوكة (حيث تنمو أشجار اللبان). وقد تم تسجيلها باسم" طريق تجاره اللبان" عام ٢٠٠٠م ثم اعيد تسجيلها عام ٢٠٠٥م تحت اسم " ارض اللبان "كما اعتمدت منظمة اليونسكو في قائمة

التراث العالمي، نظام الأفلاج العمانية عام٢٠٠٦، حيث اختارت خمسة أنواع من هذه الأفلاج كنماذج للموروث الحضاري العماني وهي:

- فلج الجيلة بولاية صور
- فلج دارس وفلج الخطمين بولاية نزوي
- فلج الميسر بولاية الرستاق
- وفلج الملكي بولاية إزكي

في رحاب شجرة اللبان

هنا البحر.. بخيراته، والتي تفيض وتستفيض، وخبراته التي لا تغيض في وجدان الناس في جنوب عمان، وطيباته وما أكثرها وتكاثره، ومغامراته التي لا تنسي (مع) الناس حين يعرفون أسرار تقلباته، و(ضدهم) أحيانا حين يكون الحوار مع الأمواج عنيفا.. هنا الجبل.. بعناده الذي يلين أحيانا، وصلابته التي تلقي بظلالها الرقيقة في عنفها، والأصلية في عنفوانها، وهي تسمح علي استحياء للون الأخضر أن يهزم اللون الأصفر، فيتواري اللون الأسود خلف ستائر الأشجار والاخضرار والازدهار.

هنا السهل بانسيابيته رغم أنف الصحراء الممتدة والممدودة. كأنها بلا قيود ولا حدود، وقد عنت وجوهها للعمار، ونزعت أقنعتها للإعمار، واندثرت وحشيتها بالتعمير إلا قليلا في جنبات ظفار. هنا الهواء.. نتنسمة بقوانين الاستشعار عن بعد. والأثير ينقل شذي الأشجار التي لا تموت واقفة أو منحنية. وأني لها الانحناء بين كل هذا

الشموخ الطبيعي، والعبير منبعث من شجرة اللبان، التي هي عنوان عماني جنوبي يتجلى بالجمال والشهامة، والأصالة والحضارة.

إنها ثنائيات التكوين يجري بينها الجدل، والحياة قصيدة جدلية من الثنائيات، وحوارية بين المتقابلات. على جبال عمان تحطمت الشيوعية، فكانت عمان كلها، بمثابة الصخرة التي طأطأت عليها رأس الشيوعية قبل سقوطها المدمرة بعشرين عاما وتلك قصة يجب أن تروي للأجيال والتاريخ، وسنوردها في مقام آخر. ومن سهول عمان، تجلت شجرة اللبان جسرا حضاريا، لا يزال ممتداً في التاريخ والجغرافيا والحضارة والحاضر، والمستقبل أيضا، وتبوح الشجرة فيها بكثير من الأسرار من قلب الجبل القاسي، تولدت نظريات تلقائية في التربية، يمارسها أبناء ظفار، الذين لا تزال خيوطهم مربوطة بنجوم السماء في الجبال رغم أن الأجيال الجديدة تتحاور مع العصر في الطب والهندسة والتكنولوجيا.

حتى وأنت تنظر إليها من بعيد تراها شجرة غير عادية... لماذا؟ إنها تتوسط قطعة من الصحراء التي بدورها تبسط يدها لعطاءات شجرة اللبان، الخير منها يتساقط، فتلتقطه الأيادي بحب واحتواء، والسر فيها يتغامض فيغري علي السفر في ذاكرتها القوية، المضخمة بروائح عرش النبي سليمان، والمتجلية بإقامة الصلوات في أماكن العبادة للكثير من الديانات والمستقطبة اهتمام العلماء ليشهدوا لها بمكنونها العلاجي.

نقرأ في كتاب "تاريخ مصر" للمؤرخ "برستد" أن كرات من هذه الثمرة وجدت في مقبرة توب عنخ آمون، وأن استخدام بخور اللبان في الأغراض الدينية ظهرت في مخطوطات المصريين القدماء أيام الأسرتين الخامسة والسادسة، وكانت حملات برية ترسل

إلي ظفار العمانية.. بعد القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد. إلا أن استخدام هذه (الثمرة العجيبة)في مراسم دفن الموتي لم يظهر بجلاء إلا بعد اكتشاف علم التحنيط.

ورواية تاريخية تشير إلي أن ثمرة شجرة اللبان ساهمت في بخور عرش نبي الله سليمان، كما جاء ذلك في أنشودة له، ورواية أخري تؤكد ورود إشارات لها في إنجيل (متي) ويقول مؤرخون أن هذه الثمرة قدمت هدايا للسيد المسيح عليه السلام وتشير سجلات (بليني) التاريخية إلي أنه في عام ٦٦ بعد الميلاد استطاع الإمبراطور (نيرون)أن يحرق كمية من اللبان تفوق كل إنتاج جنوبي شبة الجزيرة العربية في عام واحد، وكان ذلك في مناسبة دفن جثمان زوجته (بربارة).

ولا يزال اللبان العماني يفوح بروائحه السرية في البيوت والمنازل، حتى في الفاتيكان والكنائس الرومانية أثناء التجمعات الكبري لصلواتهم، من منطلق الاعتقاد أنه يطرد الشياطين والأرواح الشريرة، وهذه الشفرات السرية للبان العماني، استقطبت العلم والعلماء قديما وحديثا، حتي أن العالم الكبير (ابن سيناء) يؤكد أنها تداوي الكثير من الأمراض مثل أمراض البطن والقلب والربو، كما أنها توقف النزيف الداخلي والخارجي وتعالج أورام الطحال وآلام المفاصل، وأن مشروب اللبان الظفاري يزيد من جلاء الذهن وصفائه ويذهب بالنسيان، وفي العصر الحديث يستعين الطب باللبان، بل إن دولا صناعية كبيرة تطلب اللبان لإدخاله في صناعة الأدوية والزيوت والمساحيق والعطور والشموع.

وفي رحاب شجرة اللبان يتم استثمار عطاءات هذه الشجرة العجيبة، بل هي تمثل واحدا من مصادر الدخل. ويتبدي التواصل بين الحاضر مع الحضارة، حين يخبرنا

التاريخ أن القوافل البرية كانت تخرج من ظفار محملة باللبان حتي تصل إلي فلسطين (غزة) مرورا بشمالي اليمن، وهي المنطقة التي كانوا يطلقون عليها (سلطنة اللبان) وكانت الرسوم التي يتقاضاها أهل هذه المنطقة من قوافل اللبان التجارية، تشكل دخلهم القومي، وكانت المسارات متعددة ووعرة، لكنها تهون من أجل سر الشجرة المثيرة والتي لا تنبت إلا في عمان علي الرغم من أن الحركة تبدأ من ظفار مرورا بالساحل الفلسطيني الذي يحملها إلي روما القديمة، كان ذلك قبل أكثر من سبعة آلاف عام (مسيرة الخير، وزارة الإعلام، ظفار١٩٩٥)

بث الأقمار الخضراء

أحدق في شجرة اللبان والرجل الأسمر يجري الحوار معها، واستمع إلي مفردات الحوار بين الرجل والشجرة. ما إن تميل درجة الحرارة للارتفاع في أوائل شهر أبريل من كل عام، حتي يقوم المشتغلون بجمع الثمار (بتجريح) الشجرة في مواضع متعددة، تتراوح بين عشره وثلاثين موضعا- حسب حجم الشجرة- وبواسطة أداة صغيرة يسمونها (المنقف) وهي آلة ذات يد خشبية ورأس حديدي حاد مستدير الشكل.

الضربة الأولي للشجرة يسمونها التوقيع ويقصد به كشط القشرة الخارجية لأعضائها وجذعها، ويتلو هذه الضربة نضوح سائل لزج حليبي اللون، سرعان ما يتجمد فيتركونه هكذا لمدة ١٤ يوما تقريبا، بعدها تبدأ المرحلة الثانية من استخراج الثمار. أما السائل الذي ينضج فيتم كشطه إلي الأرض، وعندها تبدأ عملية التجريح الثانية.

والجمع الحقيقي يبدأ بعد أسبوعين من "التجريح الثاني" حيث تنقر الشجرة للمرة الثالثة، وفي هذه الحال، ينضح السائل اللبني ذو النوعية الجيدة، والذي يعد تجاريا

من مختلف الجوانب، ويكون لونه مائلا إلي الصفرة، ثم يبدأ في التجمد إما علي الشجرة نفسها أو يسقط منها علي الأرض.

إذ كانت الشجرة غزيرة الإنتاج، وإذ كانت الضربة الأولي يسمونها " التوقيع" فالضربات التالية يطلقون عليها اسم "السعف"، علي أن ضرب أشجار اللبان لا يتم بشكل عشوائي، فهو يحتاج مهارة فنية وخبرة خاصة، فقد يؤدي الخطأ في عملية الضرب إلي إصابة الشجرة بـ" العقم" ومن ثم يحذرون من إصابتها في اللب.

ويستمر موسم الحصاد لمدة ثلاثة أشهر، وأحيانا ما يمتد من أبريل إلي أكتوبر من كل عام، حيث يتم تجميع هذه الثمار بشكل منتظم، وتجمع الثمار في سلة مستديرة من "الخوص" يسمونها باللهجة المحلية "فقير". ويبلغ متوسط إنتاج الشجرة الواحده من الثمار نحو عشره كيلوجرامات تقريبا، وهناك أشجار أخري تنتج عشرين كيلو جراما. ويصل ما تنتجه محافظة ظفار في العام الواحد إلي سبعة آلاف طن تقريبا وهو ما يمكن تقدير قيمته المبدئية بحوالي مائة مليون دولار. ويستخدم سكان محافظة ظفار ثمار أشجار اللبان في ماء الشرب، حيث يضعون ثلاثة فصوص في قدح الماء لتساعد على "الإدرار" كما أنها تجعل الماء بارداً ونقيا في الصيف.

ومن بين التقاليد الراسخة منذ القدم في محافظة ظفار، ما يحدث عند الزواج، حيث يعدون المباخر الضخمة من الفخار، ويحملونها –عادة– فوق الرؤوس، يملأونها بكمية من الرماد توضع فوقه جمرات من الخشب المحترق، ثم يلقي عليها اللبان ليذوب في النار ويتصاعد البخور برائحته المحببة، ويعطر بخور اللبان رقصة "الهبوت" التي تتم علي شكل دائرة كبيرة قطرها حوالي مائة متر، توضع في وسطها المباخر المتوهجة. وهناك

استعمال آخر لثمار اللبان حيث تكون "المبخرة" علي مقربة من مهد المولود لاعتقادهم بأنها تعطر الغرفة وتطرد الروائح الكريهة. ومن العادات الثابتة إطلاق البخور علي باب المنزل في الصباح الباكر لجلب السعادة للأسرة طوال ذلك اليوم، ومن ثم يحرصون علي وجود قدر من هذه الثمار في المنزل تصونه من الأذي وتدفع عنه المضار من الهوام.

حوار لباني عربي أمريكي

وهذا حوار من نوع آخر بين اثنين من مؤرخينا العرب المشهورين ومؤرخ معاصر بجامعة ساوثوست ميسوري الأمريكية. تقول أوراق الذاكرة الجمعية أن سكان ظفار عرفوا شجرة اللبان منذ أقدم العصور، ولكن استخدام ثمارها- بشكل واسع- لم يبدأ إلا في العصر الحجري الحديث (قبل حوالي ثمانية آلاف عام) فقد سلكت قوافل التجارة المحملة باللبان الظفاري خلال العصر الإسلامي نفس الطريق التي كانت مستخدمه منذ العصر الحجرى الحديث وهى التي انشاها العرب والرومان مهتدين بنفس الطرق القديمة ، وكانت طرقا معبدة يعود تاريخها إلي عصور قديمة تتعرض للإهمال بعض الوقت ثم يعاد إصلاحها للاستخدام في أزمان تالية.

يذكر ياقوت الحموي أن العرب كانوا يعبرون الربع الخالي- بصورة دائمة- في رحلة قد تمتد خمسة وأربعين يوما من منطقة (وادي الدواسر) شمالا إلي حدود منطقة المهرة في الجنوب. وقد ظل العرب يذكرون الطريق من ريسوت بصلالة، إلي بغداد- عبر الربع الخالي- حتي ثلاثينيات القرن العشرين، ويشير المؤرخ (ابن المجاور) إلي وجود طريق بين مرباط وطاقة القديمة يمتد إلي الكوفة، وأن هذا الطريق يتفرع منه جانب آخر إلي واحات الأحساء والطائف، وهو الذي كان العرب يتخدمونه لجلب الجياد ومقايضتها بالعطور وغيرها من السلع الفاخرة.

يضاف إلى ذلك أن أول النقوش الكتابية في حضارة سومر ويرجع تاريخه إلي نحو العام ٢٣٠٠ قبل الميلاد، وهي الفترة المعاصرة للعهد الأخير من العصر الحجري الحديث في منطقتي ظفار والربع الخالي، وقد تم العثور عليه مكتوبا علي عدد من الألواح السومرية سجلت عليها كلمة (بذور) وفي سجلات أخري عبارة دقيقة "البذور المستخرجة من أشجار اللبان" وهناك تعبيرات أخري معناها: البخور المطلوب للحكام والقساوسة، وتنبئنا الكتابات الاوليه ان هذا البخور كان يقاس بالوزن ،وكانوا يخلطونه بالزيت أو الشحوم ويستخدمونه لأغراض خاصة في الطقوس الدينية والعلاج والعطور.

وفي ضوء ذلك يؤكد البروفيسور يوري زارنز في بحثه الذي أشرنا إليه قبل قليل، حول الاكتشافات الأثرية الحديثة بمحافظة ظفار، أنه من واقع النقوش الكتابية تبينا أن اللبان كان يتم تصديره إلي بلاد (سومر) ومناطق العراق القديم عن طريق البحر عبر موانئ في البحرين وشرقي الجزيرة العربية، كما أن الاكتشافات الأثرية الحديثة، التي تعززها صور الأقمار الصناعية قد أثبتت قيام هذه التجار عبر الطرق البرية (مسيرة الخير، وزارة الإعلام ظفار١٩٩٥)

وقال البحر للأقمار

ونفارق أشجار اللبان التي تتعاون معها أشجار النخيل، في بث الأقمار الخضراء في جبال ظفار، لنركب البحر. والبحر أحد مكونات الشخصية العربية، ونحن نغفل كثيرا عن جوانب التكوين العربي حين نغفل الحديث عن البحر، وتزاوج الثقافات والحضارات من خلال تماوج شطآنه، يقول المؤرخون أنه من قديم جدا والسفن العربية تمخر البحار والخلجان للصيد والتجارة والأسفار، ومن قديم جدا واللبان والبخور والصندل من منتجات الجنوب العربي ومن صادرات السفن العربية عبر البحار السبعة تغزو معابد أوروبا والشرق وتعطر الحضارة الأشورية والبابلية والفرعونية والإغريقية والرمانية ومن قديم جدا وحرير الصين وأخشاب الهند ولبان عمان ولآلئ الخليج وجواهر سيلان تسهم في صنع مظاهر الحضارة والتقدم في العالم القديم.

وحديث البحر عذب وعذب وعذوبة مثير، عالم مثير، ملكوت غامض، دنيا من الأسرار، خبايا وخفايا وحكايات، مصدر الخير، وملجأ التأمل، ولعبة الصبر الطويلة، فكم من مدن ابتلعها، وكم من حضارات غرقت فيه، وكم من أمكنة غاصت في قاعه واستقرت في قراره. ولأهل ظفار مع البحر شئون وشجون، منذ الآباء الأوائل الذين ركبوا البحر حتي ارتبطوا به وارتبط هو أيضا بهم، وأصبح البحر أحد مفاتيح الشخصية العمانية، والعماني والبحر.

عنوان مثير لقصة أمة، وحياتها المليئة بالمغامرة والتحدي، وخوص التجارب وركوب الصعب، حتي أضفي البحر كثيرا من صفاته علي الإنسان العماني، وجعلة يخفض جناح الليونة لتتجاور مع الصلابة المنبعثة من الجبل. في عام ١٩٥٩م اختطف البحر عشرات من الناس في ظفار من المراكب الشراعية في بداية الخريف، وهم متجهون إلي مسقط، سعيا للرزق في بلاد الله الواسعة، حين شاءت الأقدار أن تتأخر هذه المراكب بعضا من الوقت عن موعدها لتتلاعب

الرياح بالأمواج، وتقع الكارثة وتطال كل بيت في ظفار. لكن الأيام طوت تلك الواقعة المؤلمة، ليقع اللوم علي الرياح وليبقي البحر فياضا بالعطاء، وليظل بريئا وأمواجه، أيضا. وفي أجواء ومغامراته وخيراته وخبراته، يتجلي الحديث عن الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، وهي تبحر وترسو علي الموانئ. والموانئ في لغة الوجدان هي رمز للوداع والاستقبال، والتلاقي والفراق، والأشجان والأشواق، وهي في لغة الاقتصاد منافذ ونوافذ، واستثمارات ومنافع.

استغراق في ثمانية كنوز

في مياهها.. أعداد لا حصر لها من الأسماك التي تشكل ثروات بحرية فياضة. وفي سواحلها أشجار كثيفة لا تعبأ بكون المياه عذبة أم ملحة. وعلي نباتاتها عشرات الأنواع من الطيور المحلية، والمهاجرة، ثماني محميات أو ثمانية كنوز، تشكل في مجلها محمية كبري متقاربة الملامح والمعالم، تقول الكثير عن تكويناتها ومضامينها ودواخلها، وتبوح بالمثير من الأسرار والبحر والتاريخ والأرض التي لم يطمسها إنس ولا تكنولوجيا إلا بالحوار العلمي والعلمي الذي يراعي جمالياتها ويستثمر خيراتها وخبراتها.

هنا.. تتعانق الآثار مع الأخوار، علي طول ساحل محافظة ظفار. هنا. تتجاور المواد الطبيعية مع العطاءات الحيوية، وتعززها المواقع الأثرية والشواهد التاريخية، لتجعل من محميات الأخوار نقاط اجتذاب، وكنوز استقطاب، تمنح المنطقة خصوصية فريدة، تتجلي بالمقومات التي تؤهلها كينابيع خير، ومصادر حركة للسكان الذين يؤثرون العيش والإقامة بالقرب منها، وكموارد قادرة علي العطاء إذا ما تم استثمارها بما يتناغم مع طبيعتها، ويتكافأ مع ما تحتويه من ثروات لا تنضب مادام الحفاظ عليها مستمراً، والمحافظة عليها دائمة، خاصة بعدما أعلنت كمحميات بتاريخ ١٩٩٧/٦/٢٨م . وتتراوح مساحة الأخوار من بضعة هكتارات إلى ما يزيد علي مائة

هتكار في الأطراف الشرقية لجبل القمر، ينساب حول المغسيل، محمية هامة، تبدو أهميتها من مساحتها التي تبلغ أكثر من نصف كيلو متر مربع ويمتد طولها ٧٠٠ متر، وامتد عرضها ١٥٠ متراً. هذه واحدة.. والثانية أن الخور تفضله حواجز رملية عريضة عن البحر، الأمر الذي يتيح الفرصة الطبيعية للنباتات والأعشاب لكي تنمو بكثافة، وان تنتشر على كافة جوانب الخور، هذه الكثافة من الغطاء النباتي تشكل واحة جذب للطيور علي طول الساحل الغربي لمحافظة ظفار، وهذه هي الميزة الثالثة لخور المغسيل، وهي ميزة جعلت إدارة المحمية تقوم بتسويره حماية ورعاية وعناية. حين تتجاوز الأطراف الشرقية لمدينة صلالة، يستوقفك علي مدد النظر خور الدهاريز الكبير، الذي يمثل عقداً طبيعيا في منظمة محميات أخوار محافظة ظفار، مساحة تبلغ٠,٦ كيلو متر مربع، ومياه مفتوحة ممتدة بطول كيلو متر تقريبا، تضم مجموعات متنوعة من الأسماك، ترتبط بصفة متنظمة بمياه البحر من خلال الحاجز الرملي، ومصب موسمي في البحر بطول خمسين متراً، ونباتات كثيفة من القصب يتراوح طولها ما بين ثلاثة إلي عشرة أمتار، ومواقع تألفها الطيور لتتكاثر فيها خاصة المساحات التي ينمو فيها القصب. وقد تم حتي الآن تسجيل ما يزيد عن (٨٠) نوعا من الطيور.

يتجلى مفتاح شخصية هذه المحمية في البعد الأثري، ومن ثم تستمد محمية خور البليد قيمتها من مدينة البليد الأثرية الأولي من نوعها في السلطنة حيث أنها تجمع بين شواهد التاريخ، والاستمتاع بالموارد الطبيعية، بمساحتها التي تبلغ كيلو متراً مربعا، ويلفها حزام أخضر هادئ يزيد مدينة صلالة بهاء وجمالاً.

تلكم هي محمية (خور عوقد) التي تتهادي باخضرارها وازدهارها داخل حدود صلالة، محمية أنيفة بمساحتها الصغيرة نسبيا، والتي تستقطب العديد من الطيور التي تتكاثر فيها فتمنحها

حيوية وجمالاً وحركة وصوراً متنوعة الألوان تبهج الناظرين وتسر السائحين. ساعة أن تركب الطريق المتجه من صلالة إلى ريسوت، يستقطب عينيك هذان الخوران، ففي غمضه عين يجذب حواسك غطاء نباتي يكسو المنطقة باللون الأخضر، المنبعث من أشجار القرم، والتي من فرط كثافتها وجمالها وكثرتها استمدت المحمية اسمها منها، وإزاء هذه الميزة الطبيعية، أولتها، الإدارة كل الأهمية ليتم تخصيصا كمحمية ذات عوائد سياحية واقتصادية واجتماعية.

وحين تبعد حوالي ثلاثين كيلومترا شرق مدينة صلالة، وعلي جانب الطريق المؤدي إلي ولاية طاقة، تري سوار كبيراً يحيط واحدة من أهم المحميات في محافظة ظفار، إنها محمية (خور صولي) ذات المساحة التي تبلغ حوالي كيلومتر مربع، والتي تقع في مستجمع مياه أمطار وادي هشيم ووادي فضليت. ونظراً لأهمية هذه المنطقة، قبل إعلانها محمية، فقد أنشئ هذا السور، حماية أيضاً لبعض المواقع الأثرية الهامة، وقد كشفت الدراسات الميدانية أن خور صولي من الناحية البيولوجية يعد أحد أهم الأخوار بالمنطقة، وأكدت النتائج العملية البحثية أن الخور يحتوي أعدادا كبيرة من أنواع اللافقريات المجهرية ما يزيد علي (٤٠) نوعاً، بينما تبلغ الطيور (٦٦) نوعاً، ولأسماك (٣٦) نوعاً، وأما النباتات فيزيد عددها علي (٧٠) نوعاً، ومن هنا تكتسب محمية خور صولي أهميتها ذات الأبعاد المتنوعة، والتي تجعل منها محمية ذات وضعية مميزة، تبشر بعطاءات كثيرة.

وعلى بعد حوالي ثلاثين كيلومترا من صلالة، وغرب ولاية طاقة، تقع محمية خور طاقة التي تبلغ مساحتها (١٠٧ كيلومترات مربعة) وترتبط المحمية بالبحر، نتيجة تدفق المياه العذبة إليها من أحد الينابيع، وحتى ليبلغ تدفقها ١٤٠ لتراً في الدقيقة، وتساعد هذه الميزة كثيراً في نمو النباتات والتي تعتمد علي المياه العذبة، كما تساند النباتات التي تنمو وسط مياه عالية الملوحة.

أما أهم ما يتميز به الخور أيضاً، فهو وجود لسانين بحريين متوازيين في اتجاه البحر، يمتد كل منهما كيلومتراً تقريبا.

أما محمية (خور روري) فهي تضم واحدا من أكبر الأخوار التي تم تخصيصها كمناطق محمية علي طول ساحل صلالة، حيث يصل طولة إلي ٢,٥ كيلومتر،وعرضة٤٠٠ متر وتبلغ مساحته الكلية٨,٢ كيلو متر مربع وتستمد المحمية قيمتها وجدواها من المواقع الأثري المشهور والمعروف باسم (مدينة سمهرم) التي تطل علي ضفاف مياهه، ويتميز بمناظره الطبيعية التي تتأثر بموسم الخريف فتتناغم معه في منظومة الجمال، وهذا هو البعد السياحي للمحمية. هذه المنظومة من المحميات والأخوار الطبيعية، تشهد عمليات تحديث وتطوير، لتؤتي عطاءاتها أكثر من ذي قبل، علي ضوء الإمكانيات الحديثة والتقنيات المستمرة، بما يتناغم مع متطلبات المجتمع الذي يأخذ بأسباب العلم، ويراعي العادات والتقاليد، ويحرص علي المضي المستمر في مسارات التنمية الشاملة التي تنهض دائماً متكاملة.

د. مجدي العفيفي